يوم الرحيل

وَقَفَتْ أمام الباب تنتظر أنْ يُفتح لها الباب.. سلَّم عليها الحاج (رجب) وقال لها:

ـ أهلا يا ابنتي، كنت في انتظارك.

ابتسمت (إيمان) في هدوء.. كانت اتصلت به الساعة الثانية فجرًا، وأخبرته بمجيئها للمقبرة صباحًا.. نظر إليها (رجب) باقتضاب عندما تجاهلت الرد عليه، ثم سار بضع خطوات للباب الذي علاه الصدأ وفتحه في هدوء، فأصدر الباب صريرًا قويًا، أزاحه بيده، ودخل من الباب، ومن ورائه (إيمان).

كان المكان هادئًا، ساكنًا، لا صوت فيه حتى للرياح، كل شيء كما هو حتى الجلسة الجانبية المصنوعة من الطوب الأحمر، وعليها فرش الحصير، وأمامها صنفين من نباتات الصبار بلونها الأخضر تملآن المكان بشيء من حياة.. تذكرت يوم اشترتهما بعد مرور شهر على الوفاة حتى يأخذ أبوها أجر سُقيا وزراعة هذه النباتات الصامدة، فكرت قليلًا.. كيف تغدو نباتات أقوى وأصلب من الإنسان؟ كيف تقاوم أقسى الظروف

والتحديات، بينما يسقط فيها الانسان؟! إنها معجزة البقاء، تستنكر منا الاستسلام.. وتستقطب فينا القدرات.. تُخرج منا ما لا نألفه فينا.. تنهدت تنهيدة قصيرة وهي تَقطع أفكارها عن الصبار، وتنظُر حيث يرقد لها أغلى إنسان ـ والدها ـ الراحل منذ شهور..

ـ أفتقدك يا أبي.. أفتقدك جدًا، بل كلمة جدًا قليلة، أفتقد فيك كل شيء.. وجودك، نظراتك، حضنك الدافئ، كلامك، حتى غضبك، وأفتقد فيك..

فجأة قطع الهدوء من حولها الحاج (رجب)، وهو يقول:

ـ سأنتظركِ في الخارج، يا ابنتي.

رفعت رأسها، و نظرت إليه، لم تره جيدًا، فقد أَغرقت عينيها الدموع، وأصبحت رؤيتها لوجهه ضبابًا، أومأت له برأسها ردًا على كلماته القليلة، فسار العجوز خارجًا دون أنْ يحدِّثها بشيء، لقد أدرك مشقة تلك اللحظات عليها.

نظرت (إيمان) للقبر مرة أخرى، ولتفاصيل المكان، لا شيء يتحرك أو يُصدر صوتًا، كل الألوان باهتة، ولا يوجَد غير لون الصبار هو ما يدل في المكان على الحياة، تذكرت أنَّ هذا الهدوء لا يوازي صخب ذلك اليوم المشئوم ـ التاسع والعشرين من مارس ـ يوم استيقظت على روتين اعتادته لثمانية أيام منذ دخول أبيها للمشفى، كان صدره ضيقًا ومنقطع الأنفاس، فذهب معها مُرغمًا؛ كان لا يحب التعامل مع المستشفيات والأطباء، ورغم ذلك قال لها:

ـ سنذهب فقط للاطمئنان، ونعود لتحضير الغداء.

فكان الواقع صادمًا أنَّ حالته تستدعي الدخول للعناية المركزة، ومنذ ذلك الحين وهو فيها، وحالته كل يوم بلا تحسن، وهي.. لقد كانت تعود كل يوم للمنزل وحيدة لتحضير الغداء.

كانت تتذكر ذلك اليوم المشئوم.. يوم وصلت مقر العناية المركزة، ومكثت أمام الباب في انتظار خروج أي شخص من التمريض لِلاطْمِئْنَانِ عليه، دقائق وخرج عليها أحدهم، فلما رآها أصابته الدهشة لثوانٍ، ثم تمالك نفسه سريعًا، وسألها:

ـ خير يا آنسة؟

قالت له:

ـ حالة المهندس (ممدوح)، أريد الاطْمِئْنَانَ عليه.

باغتها سريعًا في الرد:

ـ سأنادي لكِ الطبيب.

خفق قلبها لدقائق، وأَحَسَّتْ بالأدرينالين يندفع في دمائها بسرعة، أصابها الخوف من ملامحه المتغيرة، فلمّا جاء الطبيب، أكد لها إحساسها، حين قال:

ـ أستاذة.. البقاء لله.. الوالد تُوفي منذ ساعتين.

وكأنه ألقى عليها بحجر ثقيل..

ـ كيف؟ ولماذا؟ ومنذ ساعتين؟ أبي أنا؟ أبي أنا مات؟!

لم تبالِ بالإجراءات.. فقد حضر أقاربها سريعًا بعد أنْ سقطت مغشية عليها في المشفى، كل ما كانت تشعر به وتدركه العصرة في قلبها.. الوجع.. الدمار، رحل أبوها عنها وتركها في الدنيا كلها وحيدة، يومها انكسر شيء في صدرها وانحنى وغدا ثقيلًا، كلما تحركت زاد ألمها ووجع

اليتم في قلبها، يومها فتح الحرمان ذراعيه لها، ورافقها الأسى والخراب، مغدورة هي بالدنيا، مذبوحة يتآكلها الحطام.

خَرَجَتْ تنهيدة قوية من صدرها وهي تنظر للقبر..

- كل هذه الشهور يا أبي؟ لا أعلم كيف مضت، فقد تشابهت فيها الأيام؟ أتذكَّر فقط أنِّي لم أرك منذ سبعة أشهر، وثلاثة عشر يومًا، وساعتين.. يوم كنتَ على طاولة الغُسل نائمًا، نعم نائمًا، للحظة يا حبيبي ظننتك ستفتح عينيك، أي ألم يأكل روحي هذا، ويصيبني بالجنون، وهم يطلبون مني السلام عليك والانصراف؟!

صَدْرُهَا النازف ألمًا يوجعها، وهي تتذكَّر هذه التفاصيل المؤلمة ليوم الرحيل، وكيف مرَّت عليها ثقيلة كحمل الجبال.

انتبهت فإذا بالظلام يقترب، نظرت في ساعتها فوجدتها الخامسة، كعادتها منذ الوفاة فقدت إدراك الوقت، مسحت عنها الدموع ورفعت بصرها للسماء، وكأنها تخاطب ربها في عُلاه، وقالت:

- اللهم لا رادّ لقضائك.. اغفر لأبي وارحمه، وارزقني قوة وسكينة، املأ قلبي بها فتعينني على ما أنا فيه، فليس لي غيرك يارب يا مجيب، وليس معي في الأرض غيرك حبيب.. اللهم قوة.. اللهم قوة.

واستدارت تُنادي على الحاج (رجب)، استدارت مغادرة المقبرة بنفس الألم والوجع الذي به جاءت منذ أول النهار.